آلهة الأرض

جبران خليل جبران

آلهة الأرض

THE EARTH GODS

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ آلهة الأرض/ جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام 2003 عدد النسخ 1000 نسخة

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب : 30598

هاتف: 5617071 – فاكس: 5613241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام١٨٨٣ في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمنح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام ١٨٩٨ ، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان ١٩٠٢ بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام ١٩٠٥، وأتبعه عام ١٩٠٦ بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام ١٩٠٨ والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز١٩٠٨ حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة ١٩١٢ أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة ١٩١٢ بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة١٩١٦ كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام ١٩٢٠ أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام ١٩١٩ قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام ١٩٢٠ كتابه (العواصف)، وفي عام ١٩٢٣ نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام١٩١٨ باللغة الإنكليزية وأتبعه عام١٩٢٠ بكتاب (السابق) وعام١٩٢٣ صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة ١٩٢٥ التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام ١٩٢٦، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام ١٩٢٧، و(آلهة الأرض) عام ١٩٣٠، و(التائه) سنة ١٩٣١ وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع ١٩٣١ اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام١٩٢٩ حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكونّات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أما بنية الأدب الجبراني، فتتألف من مزيج من العناصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسي وواقعي وصوفي وثوري وحداثي في الوقت نفسه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هذه الخيوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن	لا ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم	لم تجئ معه السموم
ليس في الغابات حرّ	لا ولا العبد الذميم
إنما الأمجاد سخف	وفقاقيع تعوم
لم أجد في الغاب فرقاً	بين نفس وجسد
فالهوا ماء تهادى	والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ	وتنشّفتَ بنور
وشربت الفجر خمراً	في كؤوس من أثير
هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً	وتَلَحَفّتَ الفضا
زاهداً فيما سيأتي	ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، ووَلَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام ١٩١١ كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام١٩١٦ كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام١٩١١ بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة١٩١٧: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الـورق). فلغـة الكــلام العاديـة لا يمكـن أن تصلـح للتعبـير عمـا يحسّـه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركـه جـبران فقـال: (ففـي العربيـة خلقـت لغـة جديـدة داخـل لغـة قديمـة، كـانت قد وصلت حدّاً بالغـاً مـن الكمـال. لـم أبتـدع مفـردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي مـا يفجّـره الشعر مـن كشـوف ورؤى. فمجـال الشعر هـو: (الشـيء الآخـر الأبعـد فـي الإنسـان، الشـيء الـذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شـكلاً يعبّر عنـه، ولـم نجـده حتـى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لـو تخيّل الخليل أن الأوزان التـي نظـم عقودهـا، وأحكم أوصالها ستصير مقياسـاً لفضـلات القرائـح، وخيوطـاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحـاولون تقليـد عمالقـة الشـعر العربـي والنسـج علـى منوالـهم، لأنـهم بذلـك يفتقـدون أصالـة التعبـير عـن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتـة لانضـرة فيـها ولا حيـاة: (ولـو تنبّـأ المتنبـي، وافـترض الفـارض أن مـا كتبـاه سـيصبح مـورداً لأفكـار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

آلهة الأرض

دراسة تحليليّة

جبران وسؤال الألوهيّة

قبل وفاة جبران ببضعة أيام، صدر له كتاب صغير بعنوان (آلهة الأرض). وبالرغم من أهميّة هذا الكتاب في فهم الصورة الكاملة لمسيرة جبران الفنيّة والفكرية، فإن الدارسين قلّما أولوه العناية اللازمة. فلم ينل ما يستحقه من الشهرة، أسوة بكتبه الأخرى كالنبي ويسوع ابن الإنسان.

والكتاب عبارة عن حواريّة شعرية تدور بين ثلاث شخصيّات. وبذلك يكون جبران قد أضاف جنساً أدبياً جديداً إلى قائمة الأجناس التي جرّب الكتابة فيها. فقد سبق له أن كتب القصيدة الموزونة والقصيدة المنثورة والرواية والقصة القصيرة والمقالة والخاطرة والحكمة الموجزة والنص المسرحي، وها هو ذا في هذا الكتاب

يكتب الحواريّة الشعرية أيضاً. مما يسمح بالقول إن جبران قد جرّب جميع أجناس الكتابة الأدبية المعروفة. ومردّ ذلك ،في نظري، يعود إلى قلق المبدع الذي يشعر بقصور أشكال الكتابة المختلفة عن التعبير عن غنى المحتوى الفكري و الوجداني لنفسه الجياشة بالرؤى والأحاسيس والمواقف.

ويطلق جبران على أبطال حوريته تسمية (آلهة الأرض). وهي تسمية حاسمة تفّرق بينهم وبين (اله السماء). وفي الحقيقية فانه لا يمكن فهم ما يرمي إليه جبران في هذا العمل، إلا في سياق المنحى العام للفكر الجبراني، الذي يقوم أساساً على مفاهيم (وحدة الوجود) و(الذات العظمى) و(الإنسان الكامل).

فبحسب مفهوم وحدة الوجود، يكون الله والإنسان والوجود وحدة واحدة. ففي كل إنسان (بضعة من الذات الإلهية)، وفي باطن الإنسان يوجد الوجود بكل ما فيه من محسوس ومعقول، كما أن كل ما في باطن الإنسان موجود في الوجود، فالإنسان هو كل شيء، ولا شيء إلا الله. وليس هناك من حد فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها، أو بين أعلاها وأخفضها أو بين أصغرها وأعظمها. ففي قطرة الماء الواحدة جميع أسرار البحار، وفي ذرّة واحدة جميع عناصر الأرض، وفي حركة واحدة من حركات الفكر كل ما في العالم من الحركات والأنظمة [1]

---

[1] جبران –البدائع والطرائف–مؤسسة علاء الدين–دمشق–٢٠٠٢–صفحة١٥٠

ويسـير الإنسـان نحـو الكمـال عندمـا يشـعر بوحدتـه مـع الوجود، وعندما يختبر جميع المواقف والحالات الإنسانية المختلفة (فإذا استطاع الإنسان أن يختبر ويعلم جميع هذه الأمور يصل إلى الكمال ويصير ظلاً من ظلال الله)[٢]

والإنسان الكامل هو من يسعى إلى بلوغ (ذاته العظمى). فذات الإنسان مركّبة من ذات مقتبسة، هي الذات الخارجية التي تقتبسها النفس لتتجسّد فيها، وذات معنوية خفية، هي الجوهر الأصل المترفّع عن الشرائع الدنيوية. وتزداد (ذات الإنسان الفضلى) كبراً كلما ارتقت من حال إلى حال. ففي كل دورة حياتية تكتسب المزيد من المعرفة الجامحة القديرة التي تجعلها تتحرر من قيود اللحم والعظم، وتنبثق محلقة في عالم اللا حدود حتى ترتسم على أديم السماء.[٣]

و يشبّه جبران ذات الإنسان بالجدول الصغير، الذي يدور دورات متعددة، تمثل الحيوات المتعاقبة، وفي كل دورة يحمل المزيد من الخبرات، ويكتسب الجديد من المعارف، ويكتشف ما بقي خافياً من الأسرار، وتصفو مياهه وتشفّ ليصبح قادراً على النفاذ إلى جوهر الوجود، ومن ثم يغدو مؤهلاً للعودة إلى الالتحام بالبحر العظيم ،

---

[٢] جبران-المرجع السابق-صفحة٩٧

[٣]جبران-السابق-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٣-صفحة٧٥

الذي يمثل الذات الكونية الأزلية الخالدة، حيث تجد الذات الإنسانية سلامها الشامل وحريتها الحقيقية.[٤]

وقد عرفنا في كتب جبران، شخصيات استطاعت بلوغ مرحلة (الإنسان الكامل) ولم يعد يفصلها عن الالتحام بالذات الشاملة الخالدة سوى خطوة واحدة. وفي هذه المرحلة يكون الإنسان قد صار (نبيّاً)، كما هي حال (آمنة العلوية) في نص (إرم ذات العماد)، و(المصطفى) في كتاب (النبي)، و(يسوع ابن الإنسان) في الكتاب الموسوم باسمه. وهذه الحال هي التي يعبّر عنها جبران على لسان المصطفى في كتاب النبي حين يقول: (وأنت أيها البحر الشاسع، أيتها الأم الغافية، الحالمة. أنت وحدك السلام والحرية للنهر والجدول. سيدور هذا الجدول دورة بعد. سيهمس همسة أخيرة في أذن هذه الغابة، ومن بعدها آتيك قطرة لا تحدّ إلى محيط لا يحدّ)[٥]

وهكذا، فعندما تجتاز ذات الإنسان دورتها الحياتية الأخيرة، وتحقق ذاتها العظمى التي ستلتحم بالذات الشاملة الخالدة، يكون الإنسان قد صار (إلهاً). وهذه هي غاية الوجود البشري في هذه الحياة الفانية على الأرض. ومن هنا جاءت التسمية التي أطلقها جبران على أبطال حوريته الشعرية هذه. فهم (آلهة الأرض) لأنهم أفراد من

---

[٤] جبران-النبي-مؤسسة علاء الدين-دمشق٢٠٠٣-صفحة٨١

[٥] المرجع السابق-صفحة٨١

البشر بلغوا مرحلة (الإنسان الكامل) وتخطوا مرحلة (النبوّة)، وصاروا (آلهة) بالتحامهم بالذات الإلهية.

وكما نرى، فإن هذا التفسير يبدو منطقيّاً تماماً، ومتماسكاً بقوّة، ومنسجماً مع معطيات التفكير الإبداعي الجبراني، لاسيّما إذا قرأنا كتب جبران على أنها سلسلة متواصلة من الأسئلة الوجودية ، التي تفضي محاولات الإجابة عليها إلى أسئلة جديدة، ما كان يمكن لها أن تطرح من قبل.

ففي خاتمة كل من كتابي (النبي) و(يسوع ابن الإنسان) نجد (المصطفى) و(يسوع) وقد أكملا دورنهما الحياتية الأخيرة والتحقا بالذات الشاملة الخالدة، وصارا (إلهين) من آلهة الأرض. ووفق الرؤيا الجبرانية فإن أي إنسان يستطيع أن يحذو حذوهما ليصير (إلهاً) أيضاً. بل لا بد لكل إنسان من أن يفعل مثلهما، وهكذا، فإن جميع الناس سيصبحون (آلهة) في المآل الأخير.

وقد كان بإمكان جبران أن يطمئنَّ إلى هذه النتيجة، ويعتبرها خاتمة سعيدة لفلسفته في الحياة والوجود. إلا أن روح الشاعر التي تسكنه، والتي تمور بالقلق، وتأبى الاستكانة إلى أي يقين، مثلها مثل روح أي شاعر أو مبدع حقيقي، جعلته يطرح على نفسه هذا السؤال الوجودي الخطير: وماذا بعد أن يصبح الناس (آلهة)؟ هل سيصبحون جميعاً نسخاً متطابقة تفقد أية صفات أو خصائص تميّزها ؟. وهل سينتهي الصراع فيما بينها، ويغرق الكون

في سكون شامل، أي في موت شامل، باعتبار أن الحركة هي أساس الحياة في الفكر الجبراني؟

هذا هو السؤال الذي أقام عليه جبران حواريته (آلهة الأرض). وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نرفض ما قالته السيدة (يونغ) في كتابها (هذا الرجل من لبنان) من أن جبران قد أنهى كتابة ثلثي كتاب (آلهة الأرض) ما بين عامي ١٩١٤و١٩١٥، وأن نرفض أيضاً ما ذهب إليه الشاعر الدكتور (خليل حاوي) في كتابه عن جبران من أنه قد كتبه (في أثناء مرحلة من حياته اجتاز فيها فترة من الانقسام الداخلي والتوتر قبل بروز المحبة عنده مبدأ موحداً. و تلك هي مرحلة الإله المجنون والمجنون والشيخ والشاب في المواكب. وقد اجتازها في ١٩١٨) [٦]. بينما يعتقد (ميخائيل نعيمة) أن جبران لم يباشر به إلا بعد إتمامه (يسوع ابن الانسان) . وهو ما نوافق نعيمة عليه، لأن ذلك ينسجم مع تفسيرنا لتسمية (آلهة الأرض)، ومع رؤيتنا للكتاب على أنه محاولة من جبران للإجابة على سؤال رئيس ما كان له أن يطرحه قبل كتابته لكتابي (النبي) و(يسوع ابن الانسان).

فمنذ بداية الكتاب، يحدّد جبران الزمن الذي تدور فيه هذه الحواريّة بثلاث إشارات هي:

١-حلول ليلة العصر الثاني عشر

---

[٦]خليل حاوي-جبران خليل جبران :إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره-تعريب سعيد فارس باز-دار العلم للملايين-بيروت-١٩٨٢-صفحة٢٦١

٢-ابتلاع الصمت، الذي هو مدّ بحر الليل، لجميع التلال.

٣- ظهور الآلهة الثلاثة، المولودين في الأرض، وأسياد الحياة.

ولا يخفى ما تتضمّنه الإشارة الأولى من دلالة على اكتمال دورة الحياة، وذلك لأن الرقم (الثاني عشر) هو رمز الكمال. أما الإشارة الثانية فتدلّ على احتواء الذات الكليّة الخالدة لجميع الموجودات. فالصمت الذي ابتلع جميع التلال هو مدّ بحر الليل. وقد رأينا كيف كان جبران يستخدم البحر دائماً للتعبير عن الذات الخالدة (كما هو الحال في المقبوس الذي سقناه قبل قليل من كتاب النبي) . أما الليل فإن جبران يعطيه الدلالة نفسها كما يتضح لنا من مراجعة الأوصاف التي يسبغها عليه في نص (الليل والمجنون) من كتاب (المجنون) . فالليل صامت وعميق، وفي قلب وحدته تتكئ آلهة تتمخّض بمولود علوي تأتلف بكيانه الجنة والجحيم. وهو آبد جبار، يمتطي العاصفة جواداً ويمتشق البرق حساماً. وهو قدير عظيم بنى عرشه على آكام الآلهة الساقطة وجعل الأيام تمرّ أمامه صاغرة تقبّل أهداب ثوبه من غير أن تجرؤ على التطلع إلى وجهه. وهو الذي يكشف مكنونات اللانهاية [٧]

أما الإشارة الثالثة فتؤكد التفسير الذي قلنا به لتسمية (آلهة الأرض)، فهم أفراد من البشر، مولودون في الأرض. وتحدد هذه الإشارة أيضاً زمن الحواريّة بالزمن الذي أكمل فيه هؤلاء الأفراد

---

[٧] جبران-المجنون-مؤسسة علاء الدين-دمشق-٢٠٠٢-صفحة٨٤

دورات حياتهم والتحقوا بالذات الخالدة الشاملة، وصاروا آلهة، وأسياداً للحياة.

ولكنَّ المفارقة الكبرى تتجلى في أن هؤلاء الأفراد، بالرغم من بلوغهم مرحلة الألوهيّة، لم يستطيعوا التخلي عن الصفات والخصائص الشخصيّة التي تسبغ على كل منهم فرادته وتميّزه ورؤيته الخاصة التي تختلف عن الآخرين.

فما أن ينطق الإله الأول بعباراته الأولى، حتى يكشف عن تبرمه بالوجود، ويأسه من كل ما هو كائن، ورغبته في أن ينتهي كل شيء، فيزول مع الشمس الزائلة، ويحترق ويمضي من ذاكرة الزمان إلى فراغ الأزمان!. ذلك أن كل ما فعله فارغ وباطل، بما فيه ذلك الأشكال الطينيّة التي سقطت من بين أصابعه لتصبح بشراً. فهو لا يرى في الإنسان سوى عذاباته وآلامه وصراخه وأنفاسه الملتهبة ودموعه وعرقه وتحسّراته. وما ذلك إلا لأن هذه الصورة القاتمة هي التي بقيت في ذاكرته من أدواره السابقة المنقضية في ضباب الحياة. فتلك الأدوار هي أمسه الذي ولدت منه ألوهيته، فجاءت مقيّدة بذكرى البؤس والألم. وهذا هو السبب الذي جعله يقرّر ألا يكرّر تلك المأساة مع البشر الذين لن يمنحهم فرصة اجتياز أدوار حياتهم لبلوغ الألوهية الخالدة، بل سيجعل منهم ظلالاً زائلة، فيسمو بذلك على ما يموت منه في الأرض، ويحرّر ذاته من الارتباط بعبادة الإنسان، وينقطع إلى محبة ذاته التي لا حدّ لها ولا قياس.

ولكنه سرعان ما يضيق ذرعاً بنفسه ذاتها. نفسه التي لا رفيق لها، والتي ،في مجاعتها، تصطاد ذاتها. فقد أدرك أن محبة ذاته ليست سوى دائرة محترقة تمنطقه بلهيبها. فبالرغم من أنه طرح عن قلبه النفاية الزائلة من الأرض والانسان، إلا أنه ما زال يسمو إلى ذلك المتسامي فوق ما تصل إليه قوته. وما ذلك المتسامي سوى الإله الأعلى الذي يملأ فراغ الإنسان والآلهة. فإله الأرض ليس بشراً، ولكنه أيضاً ليس الإله العليّ المكتفي بذاته. فلقد قضي عليه أن ينفخ بالبوق ، ولكن الروح النافخة والموسيقى الخارجة من بوقه ليست منه، بل تأتي من فوق، لذلك فهو يثور على هذا الواقع، ويرغب في أن يستنزف ما به حتى يصير فارغاً.

ولكن الإله الثاني يرفض التوجّه العدمي الذي يبديه الإله الأول، ويؤكد أن عروش الآلهة مبنية على رماد أجيالها السابقة عندما كانت بشراً تجتاز دورات حياتها المتعاقبة قبل أن تلتحق بالذات الشاملة. ويرى أنه من اللائق بالآلهة أن يحكموا الإنسان إلى منتهى الزمان. فالإنسان هو الكرمة التي غرستها الآلهة، ومن أجلها فلحت الأرض في الضباب الأرجواني للفجر الأول. وعندما ينضج عنب هذه الكرمة، فإن على شفاه الآلهة المقدسة أن تمتصّ نسمته الهائمة لتعيدها إلى أصلها في الذات الشاملة الخالدة، ذات الألوهية. ذلك أن كل ما هو بشري لا قيمة له إذا ظلّ بشرياً ولم يصبح خبزاً للآلهة ترفعه إلى أفواهها ليصير جزءاً منها. لقد أوجدت الآلهة الإنسان من الزواج المقدس الذي عقدته بين البحر وبين الشمس في مدّ ظهيرة

العصر السابع . وبالرغم من ضعفه وسقمه، ما برح يحمل شارة والديه، فهو المزمار الذي تسكب الآلهة صوتها من قلبه الفارغ إلى العالم الصامت. وهو الذي يذيع إرادتها ويعلن سيادتها. وبه تطلب الآلهة علامة لما بها، فهو ابن قلبها، وهو صورتها ومثالها. ولا كمال لذوات الآلهة إلا به.

وبالرغم من أن الحوارية تبدأ بين الإلهين الأول والثاني، حول غاية الألوهية، وعلاقتها بالإنسان، والمصير الذي يؤول إليه من استطاع بلوغ ذاته العظمى وتحقيق ألوهيته. فإن الإله الثالث يحاول أن يقطع حوارهما طالباً منهما الإصغاء إلى صوت الحب الذي يتجلى في نشيد شاب يعبّر عن مكنونات قلبه في الوادي، وتأمل راقصة حسناء في غابة الريحان، وقد سكرت قدماها بخمرة الإنشاد. فالحب في نظره هو الحقيقة الكبرى، وهو مجد الآلهة كما هو مجد الإنسان. ولكن الإلهين الآخرين مشغولان عن هذا المجد بخصامهما الذي لا يعكس سوى أنانيتهما وتعبهما من أثقال ذاتهما، وعدم قدرتهما على تجاوز صوت القيثارة القديمة التي تعود إلى أدوار حياتهما البشرية قبل أن يصيرا إلهين. وإذا كانت الغاية من الحوار والخصام هي المعرفة، فأفّ من الألم الذي تجلبه المعرفة! فجيوش الأفكار جميعها لا تقدر أن تصنع شيئاً حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرارة. ولذلك يخاطب الإله الثالث أخويه قائلاً: نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه. ولكن المحبّة أبعد من أن تصل إليها أسئلتنا. وأسمى من أن تبلغ إليها أنشودتنا.

وهكذا، فإن جبران لا يرى في بلوغ الإنسان لمرحلة الألوهية نهاية المطاف. فالبشر لن يصبحوا متشابهين ومتوافقين حتى لو صاروا آلهة. بل إن الفروق التي تمنح الملامح الخاصة ستبقى، وستبقى لكل فرد شخصيته المتميّزة، التي تختلف عن سواها بحسب التجارب والمعارف والخبرات التي تم اكتسابها خلال دورات الحياة البشرية على الأرض. ولذلك سيكون لكل إله منظوره الشخصي ورؤيته المتفردة. فالإله الأول لا يدرك من الأجساد التي خلّفتها الذوات العظمى على الأرض سوى رائحة الميتوتة التي تزعج حواسه كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية. أما الإله الثاني فيرى فيها العبير الملتهب للحياة المثمرة.ولا شك أن هذين المنظورين يعكسان موقفين متناقضين من الوجود والإنسان. يفضي الموقف الأول إلى الشعور بالخواء واليأس ولا جدوى الوجود، بل ولا جدوى الألوهية ذاتها. بينما يجعل الموقف الثاني من الإله متسلطاً على البشر ومتحكّماً بمصيرهم و متلذذاً بحكمهم إلى منتهى الزمان. أما موقف الإله الثالث فيختلف تماماً عن الموقفين السابقين كليهما، لأنه يبدو منصرفاً عن الانشغال بأمور الألوهية، ومنجذباً إلى مظاهر الجمال وسحر المحبة التي تنضح من قلبين بشريين على سطح الأرض.

ولا شكّ أن هذا الاختلاف بين طبائع الآلهة ورؤاها ومواقفها سيفتح المجال واسعاً للحوار والجدال، بل وللصراع فيما بينها، مما يمنح الوجود غناه، ويتيح له أن يبقى مسرحاً للحركة الدائمة.

فالوجود حركة دائمة كما كان يقول الشاعر (وليم بليك) الذي كان جبران شديد الإعجاب والتأثر به.

ومما هو واضح الدلالة أيضاً، أن جبران لا يقدّم الآلهة في هذه الحوارية كشخصيات ناجزه مكتملة وثابتة. بل هي قابلة للتطور والتغيّر، كما نرى في نهاية الحواريّة. إذ يتخلى الإله الأول عن رؤيته العدميّة ويبدي استعداده للسير على الطريق التي تمتد إلى فجر آخر. كما يتسامى الإله الثاني على الشكوك ويؤكد أن الإنسان إله يرتفع إلى ألوهيته، وما الخالد والمائت سوى نهرين توأمين يناديان البحر بغير انقطاع. وما سبب هذا التحوّل والتطور سوى انتصار المحبّة التي بشّر بها الإله الثالث. فالمحبّة هي الباقية، ولن تمحى آثار أصابعها لأن الكور المقدّس متأجج بالنار، وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة. والمحبة ، بالرغم من ضعفها البشري، هي وحدها القادرة على قيادتنا إلى اليوم المقبل. ذلك اليوم الذي لم تصل إليه حتى عيون الآلهة، ولكن المحبة قد وصلت إلى قدس أقداسه بقلبها الأعظم.

وهكذا ، تبقى المحبة جوهر الجواب الجبراني، ليس على الأسئلة البشرية فحسب، بل حتى على أسئلة الألوهية. وهي المحبة نفسها التي شكلت عماد رؤيا جبران في كتبه جميعها، ولاسيما في قصيدته الطويلة (المواكب)، وفي (النبي) و(السابق) و(يسوع ابن الإنسان) . وإن كانت قد اتخذت شكلاً أكثر تشخيصاً في هذه الحوارية. فالإله الثالث يتحدّث عن هوى الرجل والمرأة الذين يذوبان

وجداً وهياماً. هوى الرجولة وقد تحرّرت من عناء الأرض، والأنوثة الحارة ذات اللهيب المقدس . فالمحبة واحدة لا تتجزأ. وما الحب الجسدي بين الرجل والمرأة سوى مظهر للحب الروحي الذي يربطهما، والذي هو بدوره أحد تجليات المحبة الكونية التي تشمل أشياء الوجود جميعها. فالمحبة روحنا ومعلمنا في كل حال، كما يقول جبران على لسان الإله الثالث، وهي ليست بالشهوة الزائدة في الجسد، ولا هي فتات الرغبة المتساقطة من مصارعة الرغبة للذات، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح. إذ لا تناقض بين الروح والجسد في إطار وحدة الوجود. فما الجسد سوى جزء من الروح كما كان يقول (وليم بليك)، الذي كان يدافع أيضاً عن الحب الجسدي، ويعتبر أن الامتثال إلى رغبات الجسد هو امتثال للإرادة الإلهية المغروسة فينا.

وفي الحقيقة، فإن المقاطع التي وردت على لسان الإله الثالث في هذه الحوارية، يمكن جمعها معاً لتشكل قصيدة متكاملة ، ربما كانت من أجمل وأعذب ما كتب جبران في هوى الرجل والمرأة. هذا الهوى الذي تمحى فيه كل أشياء الوجود ليبقى وحده ممثلاً للحقيقة الخالدة.

د. نزار بريك هنيدي

دمشق ٢٠٠٣/٧/٣٠

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (١٥)

آلهة الأرض

THE EARTH GODS

BY KAHLIL GIBRAN

(١٩٣٢)

تعريب: الأرشمندريت أنطونيوس بشير

آلهة الأرض

وعندما حلت ليلة العصر الثاني عشر، وابتلع الصمت، الذي هو مدّ بحر الليل، جميع التلال،

ظهر الآلهة الثلاثة، المولودون في الأرض، وأسياد الحياة، على الجبال،

فتراكضت الأنهار إلى أقدامهم،

وغمرت أمواج الضباب صدورهم،

وارتفعت رؤوسهم بجلال فوق العالم،

ثم تكلموا، فتموجت أصواتهم، كالرعد البعيد، فوق السهول.

الإله الأول:

إن الريح تهبّ شرقاً،

فأريد أن أحوّل وجهي نحو الجنوب،

أن الريح تملأ مشاميّ برائحة الأشياء الميتة.

الإله الثاني:

هذه رائحة الأجسام المحترقة، وهي لذيذة وسخية.

وأنا أودّ أن أتنشقها.

الإله الأول:

هي رائحة الميتوتة المحترقة على لهيبها الضئيل.

وهي تملأ دقائق الهواء بوفرة،

فتزعج حواسي كما يزعجها الهواء الفاسد في الهاوية.

ولذلك أريد أن أحوّل وجهي إلى الشمال الذي لا رائحة فيه.

الإله الثاني:

إنها العبير الملتهب للحياة المثمرة.

وهي ما أود أن أتنشقه الآن وفي كل أوان.

إنما تعيش الآلهة على التضحية،

وتبّرد غلة عطشها بالدم،

وتسكّن قلوبها بالنفوس الفتيّة،

وتشدّد عزائمها بالتأوهات الدائمة التي تصعدها أرواح القاطنين في قلب الموت،

وعروشها مبنية على رماد الأجيال.

الإله الأول:

قد سئمت روحي كل ما هو كائن،

فأنا لن أمدّ يداً لأخلق عالماً،

ولا لأمحو عالماً من الوجود.

إنني ما كنت لأعيش لو أنني قادر أن أموت،

لأن ثقل الأعصر كلها على كتفي،

وهدير البحر الذي لا ينقطع يستنفذ كنوز نومي.

فيا ليت لي أنْ أخسر المطلب الأول،

فأزول كالشمس الزائلة.

أود لو أستطيع أن أجرّد ألوهيتي من غايتها،

لأنفخ أنفاس ميتوتتي في الفضاء،

فلا أكون فيما بعد.

يا ليت لي أن أحترق وأمضي من ذاكرة الزمان إلى فراغ الأزمان!.

الإله الثالث:

أصغيا يا أخويّ، أصغيا أيها الشقيقان القديمان.

فإن شاباً في ذلك الوادي،

ينشد مكنونات قلبه في أذن الليل.

إن قيثارته من الذهب والأبنوس،

وصوته من الفضة والذهب.

الإله الثاني:

إنني لست مغروراً بهذا المقدار لأتمنى أن لا أكون.

فأنا لا أقدر أن أختار إلا أصعب الطرق،

لأتتبع الفصول وأخضد شوكة السنين،

لأزرع البذور وأراقبها تنفذ إلى قلب الأرض،

لأدعو الزهرة من مخبئها وأسلحها بقوة لتحضن حياتها، ثم أعود فأقلعها عندما تضحك العاصفة في الغابة، لأنهض الإنسان من الظلمة السرمدية.

ولكنني أحفظ لجذوره حنينها إلى الأرض.

لأغرس فيه العطش للحياة، وأجعل الموت حاملاً أقداحه،

لأعطيه المحبة النامية بالألم، المتسامية بالشوق، المتزايدة بالحنين، والمضمحلة بالعناق الأول،

لأمنطق لياليه بأحلام الأيام العلوية،

وأسكب في أيامه رؤى الليالي المقدسة،

ثم أحكم على أيامه ولياليه بالمماثلة التي لا تتغير،

لأجعل خياله كالنسر على الجبل،

وأفكاره كعواصف البحار،

ثم أعطيه يداً بطيئة في الحكم،

وقدماً ثقيلة في التأمل،

لأمنحه مسرة ليترنم أمامنا، وكآبة ليلتجىء إلينا،

ثم أجعله وضيعاً عندما تصرخ الأرض في مجاعتها طالبة طعاماً،

لأرفع نفسه عالية فوق الجلد،

ليصير قادراً على مذاقة غدنا،

وأحفظ جسده يتمرغ بالحمأة،

لكي لا يتناسى ذكر أمسه.

هكذا يليق بنا أن نحكم الإنسان إلى منتهى الزمان،

مقيدين النسمة التي تبدأ بصراخ أمه،

وتنتهي بنواح أولاده.

الإله الأول:

إن قلبي يحترق عطشاً. بيد أنني لا أريد أن أشرب دماً ضعيفاً لجنس ضعيف.

لأن الكأس ملطخة. والعصير الذي فيها مرّ المذاق في فمي.

وأنا مثلك قد عجنت الطين وصنعت منه أشكالاً متنفسة لم تلبث أن سقطت من بين أصابعي إلى الآجام والتلال.

وأنا مثلك قد أنرت الأعماق المظلمة لبداءة الحياة.

وراقبتها تزحف من الكهوف إلى الأعالي الصخرية.

أنا مثلك قد أحضرت الربيع ووضعت جماله.

ليكون غواية تقبض على الشباب وترغمه على الإنتاج والتكاثر.

أنا مثلك قد سرت بالإنسان من مزار إلى مزار.

وحولت مخاوفه الصماء من غير المنظورات إلى إيمان مضطرب بنا من غير أن يرانا أو يعرفنا.

أنا مثلك قد جعلت العاصفة الهوجاء على رأسه لينحني أمامنا.

وزعزعت الأرض تحت قدميه حتى يصرخ إلينا.

ومثلك أثرت الأوقيانوس البربري فطغى على عش جزيرته،

حتى مات في توسله إلينا.

كل هذا فعلته، وأكثر منه.

وكل ما فعلته فارغ باطل.

باطلة هي اليقظة وفارغ هو النوم،

وثلاث مرات باطل وفارغ هو الحرم.

الإله الثالث:

يا أخوي، إن في غابة الريحان تلك فتاة ترقص للقمر، وفي شعرها ألف نجمة من الندى،

وحول قدميها ألف جناح.

الإله الثاني:

إننا قد غرسنا الإنسان، كرمتنا.

وفلحنا الأرض في الضباب الأرجواني للفجر الأول،

وراقبنا الأغصان النحيلة نامية،

وغذينا الأوراق الفتية على مر الأيام والسنين التي لم تعرف الفصول،

وحصّنّا البراعم ضد العناصر الغضوب،

وحرسنا الزهرة من اعتداء الأرواح المظلمة

والآن، وقد أخرجت كرمتنا عنبها،

فأنتم لا تحملونه إلى المعصرة لتملئوا الأقداح،

فأية أيدٍ أقدر من أيديكم ستجمع الثمر؟

وأي مطلب أنبل من عطشكم ينتظر الخمرة؟

فالإنسان طعام للآلهة.

ومجد الإنسان يبتدئ عندما تمتص شفاه الآلهة المقدسة نسمته الهائمة على غير هدى.

كل ما هو بشري لا قيمة له إذا ظل بشرياً.

إن طهارة الأطفال، ووجد الشباب اللذيذ،

وهوى الرجولة العزوم، وحكمة الشيخوخة الناضجة،

إن مجد الملوك، ونصر المحاربين،

وشهوة الشعراء، وشرف الحاكمين والقديسين،

كل هذه، وكل ما تحمله في ثناياها، هو خبز الآلهة.

وهي لن تكون إلا خبزاً بغير بركة إذا لم ترفعها الآلهة إلى أفواهها.

وكما أن حبة الحنطة الصماء تتحول إلى أنشودة محبة عندما يبتلعها البلبل،

هكذا الإنسان إذا كان خبزاً للآلهة يتذوق الألوهية.

الإله الأول:

نعم، إن الإنسان هو خبز الآلهة!

وكل ما هو من الإنسان سيأتي إلى مائدة الآلهة الخالدة!

آلام الحمل، وعذاب الولادة،

صراخ الأطفال الذي يشق كبد الليل،

وغم المرأة وهي تصارع النوم الذي تتوق إليه لتسكب الحياة الذاوية من ثدييها.

الأنفاس الملتهبة الخارجة من صدور الشباب المتقطعة، والعبرات المثقلة بأحمال الأهواء التي لم تفتح خزائنها بعد.

جباه الرجولة القاطرة عرقاً وهي تحرث الأرض الجدباء، وتحسرات الشيخوخة الذابلة عندما تدعو الحياة - ضد إرادة الحياة - إلى القبر.

تأملوا، هذا هو الإنسان!.

مخلوق يلده الجوع فيصير طعاماً للآلهة الجائعة، وكرمة تدب في تراب الأرض تحت أقدام الموت الذي لا يموت.

زهرة تزهر في ليالي الأشباح الشريرة،

وعنبٌ لا ينضج إلا في أيام الدموع والرعب والعار.

وأنتم على رغم هذا كله تطلبون إليّ أن آكل وأشرب،

وترغبون إليّ أن أجلس بين الوجوه المكفنة،

وأستقي حياتي من الشفاه الصخرية،

وأقتبل خلودي من الأيدي اليابسة!.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان الراعبان،

إن الشاب يغني في أعماق الوادي،

ولكن أنشودته تتصاعد إلى أعالي الجبال،

وهو يهزّ الغابة بصوته، ويشقّ كبد السماء،

ويبدّد أحلام الأرض.

الإله الثاني:

(يصم أذنيه دائماً)

إن النحلة تطنّ بغلاظة في أذنيك،

والعسل مرّ المذاق في فمك.

إنني أودّ أن أعزّيك،

ولكن أنّى السبيل إلى ذلك؟

فليس يصغي غير الهاوية عندما تخاطب الآلهة الآلهة،

لأن الهوة الفاصلة بين الآلهة لا تحدّ ولا تقاس،

والفضاء صامت لا ريح فيه.

ومع كل هذا أريد أن أعزيك،

أريد أن أجعل دائرتك المتلبدة بالغيوم نقية صافية.

ومع أننا متساويان بالقوة والفهم.

فإنني أريد أن أخلص لك النصح.

عندما خرجت الأرض من الفضاء، ورأينا نحن، أبناء البدء، أحدنا الآخر في النور الذي لا عيب فيه، حينئذ أصعدنا الصوت الخفي، المرتعش، الأول، الذي أنعش مجاري الهواء والماء.

ثم مشينا، جنباً إلى جنب، على سطح العالم الفتيّ الشيخ، ومن صدى خطواتنا البطيئة ولد الزمان إلهاً رابعاً، فاقتفى آثار خطواتنا، وأظلم بخياله أفكارنا ورغباتنا، ولم يرَ إلا بنور عيوننا.

ثم جاءت الحياة إلى الأرض، وجاءت الروح إلى الحياة، وكانت الروح نغماً مجنحاً في الوجود، فحكمنا على الحياة والروح، ولم يقدر أحدٌ غيرنا على معرفة مقاييس السنين، وموازين الأحلام السديمية في الأعوام، حتى جاء العصر السابع فزففنا في مدّ ظهيرته البحر عروساً للشمس.

ومن مضجع هذا الزواج المقدس أخرجنا الإنسان، الذي على رغم ضعفه وسقمه، ما برح يحمل شارة والديه.

وبواسطة الإنسان، الذي يمشي على الأرض وعيناه في النجوم، قد وجدنا طرقاً نافذة إلى أبعد الأصقاع النائية في الأرض، ومن الإنسان، وهو القصبة الوضيعة النامية على المياه المظلمة، قد صنعنا مزماراً نسكب من قلبه الفارغ صوتنا إلى العالم الصامت في جميع أرجائه. ومن الشمال الذي لا شمس فيه، إلى رمال الجنوب المحترقة بالشمس، ومن أرض عرائس النيل حيث تولد الأيام، إلى جزائر الأخطار حيث تذبح الأيام.

ترى الإنسان الضعيف القلب يتشجع بغايتنا ،

فيغامر بالقيثارة والسيف.

فهو يذيع إرادتنا ، ويعلن سيادتنا ،

والمجاري التي يطؤها بأقدام محبته هي أنهار سائرة إلى بحر رغباتنا.

فنحن، جالسين إلى أعالينا ، نحلم أحلامنا في نوم الإنسان.

إننا نحثّ أيامه لتفارق وادي الشفق البعيد ، وتنشد كمالها على التلال.

وأيدينا تسيّر العواصف التي تجرف العالم،

وتحمل الإنسان من السلامة القيمة إلى الجهاد المثمر ، ومن ثمت إلى الانتصار.

وفي أعيننا بصيرة نيرة تحول نفس الإنسان إلى لهيب،

وتقوده إلى وحدة رفيعة ونبوة ثائرة،

ومن ثم إلى الصلب.

فقد ولد الإنسان للعبودية ،

وبالعبودية شرفه ومكافأته.

بالإنسان نطلب علامة لما بنا ،

وبحياته ننشد كمال ذواتنا.

فإذا أخرس تراب الأرض قلب الإنسان، فأي قلبٍ يستطيع أن يرجع صدى صوتنا؟

وإذا عميت عيون الإنسان بظلمة الليل، فمن يستطيع أن يرى لمعان مجدنا؟

فماذا يجب أن نفعل بالإنسان وهو ابن قلبنا الأول، وهو صورتنا ومثالنا؟

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان القديران ،

إن قدمي الراقصة الحسناء قد سكرتا بخمرة الإنشاد ،

فأثارتا دقائق الهواء المرتعشة ،

وهي كالحمامة تحلق مرتفعة بجناحيها .

الإله الأول:

القبرة تنادي القبرة ،

ولكن النسر يحوم فوقها ،

وهي لا تتوقف لتصغي إلى الإنشاد.

أنت تريد أن تعلن محبة الذات متكملة بعبادة الإنسان، وراضية

بعبودية الإنسان.

ولكن محبة ذاتي لا حد لها ولا قياس.

فأنا أريد أن أسمو على ما يموت مني في الأرض،

وأتخذ لي عرشاً في السماوات.

فأمنطق الفضاء بذراعيّ، وأحيط بالأفلاك.

وأريد أن أتخذ من المجّرة قوساً،
ومن المذنّبات سهاماً

وباللانهاية أريد أن أحكم اللا نهاية.

أما أنت فلا تريد أن تفعل هذا ولو كان في منالك.

فنسبة الإنسان إلى الإنسان،

هي كنسبة الآلهة إلى الآلهة.

وأنت تريد أن تحمل إلى قلبي التعب،

ذكرى الأدوار المنقضية في الضباب،

في حين أن نفسي نشدت ذاتها بين الجبال،

وعيني تعقبتا صورتهما في المياه الهاجعة،

ولكن عروس أمسي قضت نحبها في أثناء ولادتها،

فالصمت فقط يزور رحمها،

والرمال التي تقذفها الرياح ترضع ثديها.

فيا أمسي، أيها الأمس المائت، يا والد ألوهيتي المقيّدة.

أي إله عظيم قبض عليك في طيرانك،

وأرغمك على الولادة في قفص؟

وأية شمس جبارة بعثت حرارتها في بطنك لتلدني؟

إنني لا أباركك، ولكنني لا ألعنك.

فكما أنك أثقلت كاهلي بأحمال الحياة،

هكذا أثقلت أنا كاهل الإنسان.

بيد أنني كنت أقل قساوة منك.

فأنا، الخالد، قد جعلت الإنسان ظلاً زائلاً،

أما أنت، المائت، فقد خلقتني خالداً.

فيا أمسي، أيها الأمس المائت،

هل تعود مع الغد البعيد؟

فأقودك إلى المحاكمة؟

وهل تستيقظ مع الفجر الثاني للحياة،

فأمحو ذاكرتك العالقة بالأرض من الأرض؟

أود لو أنك تقوم مع جميع الأموات القدماء،

حتى تختنق الأرض بأثمارها المريرة،

وتنتن جميع البحار بدماء المذبوحين فيها،

ويستنزف الويل فوق الويل كل ما في الأرض من الخصب الذاهب عبثاً.

الإله الثالث:

يا أخويّ، أيها الأخوان القديسان،

قد سمعت فتاتنا الأنشودة الساحرة،

وهي تفتش الآن عن المرنم.

وهي كالخشف، في دهشة مسرتها،

ترقص فوق الصخور والجداول،

فتديرها في جميع الجهات.

ما أجمل الغبطة التي ترافق المطالب المائتة،

والعين التي تفتحها الغاية النصف المولودة!

ما أحلى الابتسامة المرتجفة لما ستتمتّع به من الغبطة الموعود بها!

أية زهرة تساقطت من السماء،

أي لهيب ارتفع من الجحيم،

فحمل قلب الصمت إلى هذا الفرح والخوف المقطع الأنفاس؟

أي حلم حلمناه على الأعالي،

أي فكر بعثناه في الريح،

فأيقظ غفلة الوادي،

وفتح عيني الليل؟

الإله الثاني:

إنك قد أُعطيت النول المقدس.

وأُعطيت الفن لحياكة الثياب.

فالنول والفن سيكونان لك إلى الأبد ،

وسيكون لك معهما الخيط الأسود والنور ،

ولك أيضاً الأرجوان والذهب.

وأنت مع كل هذا تحوك من نفسك ثوباً.

قد نسجت يداك نفس الإنسان من الهواء الحي والنار ،

وأنت تريد الآن أن تقطع الخيط،

وتطلق أصابعك الشعرية في الأبدية الخاملة.

الإله الأول:

نعم، نعم، إنني سأطلق يدي في الأبدية التي لم تسبك في قوالبها بعد ،

وفي الحقول التي لم تطأها قدمٌ سأطلق قدمي،

فأية مسرة لي في سماع الأناشيد التي طالما سمعها غيري، التي تلتقط ذاكرة الأذن أنغامها قبل أن يسلمها النفسُ إلى أمواج الهواء؟

إن قلبي يحن إلى ما يستطيع أن يتصوره،

وأنا لن أرسل روحي إلا إلى عالم غير المجهول الذي لا تقطن فيه الذاكرة.

بربك، لا تجربني بمجد فارغ،

ولا تطلب لي تعزية بأحلامك أو أحلامي،

لأن كل ما فيّ، وكل ما في الأرض،

وكل ما سيكون في الوجود، لا يقدر أن يستهوي نفسي.

فيا نفسي.

إن وجهك صامت،

وأشباح الليل نائمة في عينيك.

ولكن صمتك راعب،

وأنت راعبة.

الإله الثالث:

يا أخويّ: أيها الأخوان الرصينان،

إن الفتاة قد وجدت المرّنم.

فهي تنظر وجهه المحبوب.

وهي كالنمر تتخطر بخطوات ساحرة،

بين الدوالي والأسيجة المتموجة.

وهو ينظر إليها الآن في وسط أناشيد محبته.

أواه يا أخويّ، أيها الأخوان الغافلان،

هل هنالك إله آخر وقد حاك من آلامه هذا النسيج القرمزي والأبيض؟

أي نجم جامح قد أفلت هارباً؟

ومن يفصل الليل عن النهار بسره؟

ومن يضع يده على عالمنا؟

الإله الأول:

يا نفسي، يا نفسي،

أيتها الدائرة المحترقة التي تمنطقني بلهيبها.

كيف أستطيع أن أقود سيرك؟

وإلى أي فضاء أدير شوقك؟

يا نفسي التي لا رفيق لها،

إنك في مجاعتك تصطادين ذاتك،

وبدموعك تريدين أن تبردي عطشك،

لأن الليل لا يجمع نداه في أقداحك،

والنهار لا يحمل إليك أثماره.

يا نفسي، يا نفسي،

أنت تحملين سفينتك إلى الشاطئ وهي مثقلة بأحمال الراغبات.

فمن أين تأتي الرياح لتملأ شراعك،

وأي مد فياض يقدر أن يحرر دفتك؟

إن مرساتك حاضرة وجناحيك على أهبة الطيران،

ولكن السماء صامتة فوقك،

والبحر الهادئ يهزأ بسكونك.

فأي رجاء ثمت لي ولك؟

وأي تقلب في العوالم، أو تبدل في غايات السماء سيطلبك؟

هل تحمل رحم عذراء اللا نهاية زرع منقذك،

ذلك الذي هو أقدر من أحلامك،

وستنقذك يده من عبوديتك؟

الإله الثاني:

أحبس صراخك اللجوج،

وأنفاس قلبك الملتهب،

لأن أذن اللا نهاية صماء، وغافلة هي عين السماء.

فنحن كل ما وراء العالم وكل ما فوقه،

وبيننا وبين الأبدية غير المحدودة لا يوجد شيء غير أهوائنا التي لم تتشكل، وغاياتها التي لم تتكمل.

أنت تستهوي غير المعروف،

وغير المعروف، المرتدي بالضباب المتحرك،

إنما يقطن في أعماق نفسك.

نعم، في أعماق نفسك يضطجع منقذك نائماً،

وهو يرى في نومه ما لا تراه عيناك المستيقظتان.

هذا هو سر كياننا.

فهل تعرض عن جمع حصادك،

لتلقي بذارك بعجلة في أثلام أحلامك؟

وعلام تبسط سحبك في الحقول الخربة،

في حين أن قطيعك يفتش عنك،

وأنت عبثاً تجمع في خيالك؟

فتأنّ، وأنعم نظرك في العالم.

انظر إلى أولاد محبتك غير المفطومين.

إن الأرض هي مسكنك، والأرض هي عرشك، وفوق أرفع آمال الإنسان تقبض يدك على قسمته،

أنت لا تريد أن تتركه.

وهو المجاهد أن يصل إليك بمسراته وآلامه.

وأنت لا تحوّل عينيك عن الحاجة التي في عينيه.

الإله الأول:

هل يضم الفجر قلب الليل إلى صدره؟

أم هل يعبأ البحر بأجسام موتاه؟

كالفجر تنهض نفسي في أعماقي،

عارية غير متحيّرة.

وكالبحر الذي لا يستريح،

يطرح قلبي عنه النفاية الزائلة من الأرض والإنسان.

إنني لن أعلق بكل من يعلق بي،

ولكنني أريد أن أسمو إلى ذلك المتسامي فوق ما تصل إليه قوتي.

الإله الثالث:

يا أخويّ، تأملا أيها الأخوان،

إن روحين سائرتين إلى النجوم قد اجتمعتا في الجو للحساب.

وهما تنظران الواحدة إلى الأخرى بصمت وسكون.

إن المرنم قد انقطع عن الغناء،

ولكن حلقه الذي حرقته الشمس يرتعش بالأناشيد،

ورفيقته الراقصة قد سكن الرقص في أعضائها،

بيد أنه لم ينم.

يا أخوي، أيها الأخوان الغريبان،

إن الليل يشتد ادلهماماً،

والبدر يزداد إشرقاً، وبين الغابة والبحر،

تصرخ المحبة بأعلى الصوت تدعوكما وتدعوني إلى قلبها.

الإله الثاني:

يا لتفاهة الكيان، والنهوض والاحتراق أمام الشمس الملتهبة،

والحياة والمراقبة لليالي الأحياء،

كما تراقبنا عين الجوزاء!

يا لحقارة مجابهة الرياح الأربع برأس مكلل رفيع،

وشفاه أسقام الناس بأنفاسٍ لا مدّ في بحرها!

إن الخيّام جالس يخبط خبط عشواء أمام نوله،

والخزّاف يدير دولابه بعدم اكتراث،

أما نحن، الذين لا ينامون، ويعرفون كل شيء،

فقد أُعتقنا من ظلمة الظنّ والتخمين.

فنحن لا نتردد ولا ننعم الفكر والنظر،

لأننا قد سمونا رفعة على جميع الأسئلة القلقة.

فلنعش مطمئنين، ولنطلق طيور أحلامنا من أقفاصها.

وكالأنهار فلنسكب في البحر،

من غير أن تديرنا حافات الصخور،

فإذا بلغنا قلب اللجة، وابتلعتنا أمواجها،

انقطعنا عن المجادلة والتأمل في مصير الغد، إلى الأبد.

الإله الأول:

أفٍّ من ألم هذا التكهن الذي لا ينقطع،

وهذا السهر السائر بالنهار إلى الشفق،

والذاهب بالليل إلى الفجر!

أفٍّ من هذا المد الذي يحملنا إلى الذكرى الدائمة، والنسيان الدائم،

وهذا الزرع المتواصل لبذار الأقدار التي لا تحصد منها غير الآمال،

وهذا الرفع غير المتغير للذات من التراب إلى الضباب،

لتحن إلى التراب، ثم تسقط بحنينها إلى التراب،

ثم لا يلبث أن يتضاعف حنينها فتنهض ناشدة الضباب ثانية!

أفٍّ من هذا القياس الذي بغير أوانه للزمان الذي لا يتغير!

وهل تحتاج نفسي إلى أن تصير بحراً تزعج مجاريه بعضها بعضاً إلى الأبد.

أو جوّاً تتحول فيه الرياح المتحاربة إلى زوبعة؟

لو كنت رجلاً، لو كنت عبيراً أعمى،

لكان في طوقي الصبر على كل هذا.

أو لو كنت الإله الأعلى، الذي يملأ فراغ الإنسان والآلهة، لكنت أكتفي بذاتي.

ولكن أنا وأنت لسنا بشراً،

ولا نحن بالعليّ الذي فوقنا،

ولكننا أشفاق (جمع شفق) لا تتقطع عن الظهور والزوال من أفق إلى أفق.

وآلهة، نمسك بالعالم ويمسك العالم بنا.

وقد قضي علينا أن ننفخ بالأبواق،

ولكن الروح النافخة والموسيقى الخارجة من أبواقنا ليست منا بل تأتي من فوق.

لذلك تراني أرغب في الثورة.

أريد أن أستنزف ما بي حتى أصير فارغاً،

أريد أن أبتعد عن بصيرتك،

أريد أن أختفي من ذاكرة هذا الشاب الصامت، الذي هو أخونا الأصغر، الجالس قريباً منا يتأمل في ذلك الوادي.

ومع أن شفتيه تتحركان، فهو لا ينطق بكلمة.

الإله الثالث:

إنني أتكلم أيها الأخوان الغافلان،

إنني أتكلم بالحقيقة،

ولكنكما لا تسمعان غير حديثكما.

أطلب إليكما أن تنظرا مجدكما ومجدي،

بيد أنكما تتحولان، وتطبقان أجفانكما، وتهزّان عرشيكما.

فيا أيها الحاكمان الراغبان في السيادة على ا لعالم العلوي والعالم السفلي،

أيها الإلهان الأنانيان اللذان لا ينقطع أمسهما عن حسد غده.

أيها التعبان من أثقال ذاتكما ، المهدّئان حدّة غضبكما بالكلام، والضاربان محاجرنا بالصواعق.

ليست مخاصمتكما سوى صوت القيثارة القديمة،

التي نسيت أصابع القدير نصف الضرب على أوتارها ، ذلك الذي الجوزاء عوده والثريا صنوجه،

وهو حتى في هذه الساعة التي تتمتمان وتدمدمان فيها يضرب على عوده وصنوجه،

فألتمس منكما أن تصغيا إلى أنشودته.

انظرا ، رجلاً وامرأة،

لهيباً مع لهيب،

يذوبان وجداً وهياماً.

جذور ترضع ثدي الأرض الأرجواني،

وزهور من نار على صدر السماء.

ونحن الثدي الأرجواني،

ونحن السماء الباقية.

إن نفسنا ، التي هي نفس الحياة ، نفسكما ونفسي،

إنما تقيم الليلة في حلق ملتهب،

مجللة جسم فتاة طاهرة بثوب من الأمواج الثائرة.

إن صولجانكما لن يغير هذه القسمة المعدّة لنا.

همومكما هي الطموح بعينه.

لأن هذا جميعه سيمحى من الوجود في هوى الرجل والمرأة.

الإله الثاني:

وما شأن هذه المحبة بين الرجل والمرأة؟

تأمل كيف ترقص الريح الشرقية الرشيقة ،

وتنهض الريح الغربية مترنمة بأنشودتها.

انظر إلى محجّتنا المقدسة جالسة على عرشها الآن،

باستسلام روح يغني إلى جسد يرقص.

الإله الأول:

إنني لن أحول عيني إلى وهم الأرض.

ولن أنظر إلى أولادها في الألم البطيء الذي تسميه محبة.

وما هي المحبة ،

سوى طبل مقنع يقود مركباً طويلاً من الريب اللذيذ، إلى شكل آخر من الألم البطيء؟

إنني لا أريد أن أنظر إلى هذا الوهم.

وأي شيء تراه هناك،

إلا رجلاً وامرأة في الغابة التي نمت لتصطادهما في فخاخها، وتعلمهما إنكار الذات،

وولادة المخلوقات لغدنا الذي لم يولد بعد؟

الإله الثالث:

أفٍّ من الألم الذي تجلبه المعرفة!

والقناع المظلم الذي وضعه تفحصنا وتساؤلنا على وجه العالم، والاستنهاد الذي نوجهه في كل ساعة للصبر البشري!.

فنحن نضع تحت حجرٍ شكلاً من الشمع،

ثم نقول: إنه شكل من الطين،

فليجد في الطين آخرته.

ونمسك بأيدينا لهيباً أبيض،

ثم نقول في قلوبنا:

إنه عبير ذواتنا يرجع إلينا،

ونسمة نسمتنا الفالتة منا،

وبعد ذلك نعمد مفتشين في أيدينا وشفاهنا عن المزيد من العبير.

فيا إخوتي، آلهة الأرض،

إننا وإن كنا في أعلى الجبل،

فنحن ما زلنا نسير إلى الأرض،

بواسطة الإنسان الراغب في الساعات الذهبية التي في نصيب أخيه الإنسان.

فهل تسلب حكمتنا الجمال من عينيه؟

أم هل تخضع مقاييسنا أهواءه فتحملنا إلى السكون، أو تقودنا إلى مستوى أهوائنا؟

ماذا تقدر أن تصنع جيوش أفكاركم،

حيث تجتمع المحبة بجيوشها الجرارة؟

ألا إن الذين غلبتهم المحبة،

وسارت بمواكبها فوق أجسادهم من البحر إلى الجبل، ومن الجبل إلى البحر،

يقفون الآن، وفي كل أوان، متعانقين بحياء ووقار.

باجتماع أوراق زهور محبتهم يتنشقون عبير الحياة المقدس،

وباتحاد نفوسهم يجدون نفس الحياة،

وعلى أجفانهم ترتسم صلاة مرتفعة إلينا.

المحبة هي ليلٌ منحن بوقار تحت خيمة مقدسة،

وسماء قد تحولت إلى غابة،

بل هي جميع النجوم قد تحولت إلى حباحب،

نحن بالحقيقة كل ما وراء العالم وكل ما فوقه.

ولكن المحبة أبعد من أن تصل إليها أسئلتنا

وأسمى من أن تبلغ إليها أنشودتنا.

الإله الثاني:

أتطلب دائرة بعيدة،

ولا تهتم بهذا الكوكب الذي غرست فيه عزيمتك؟

ليس في الفضاء مركز إلا حيث نزف النفس إلى النفس،

ويكون الجمال شاهداً وكائناً.

فتأمل وانظر الجمال مبعثراً حول أقدامنا.

تأمل جيداً كيف يملأ الجمال أيدينا لينزل العار بشفاهنا.

إن الأبعد هو الأقرب.

وحيث يكون الجمال يكون كل شيء.

أواه أيها الأخ الحالم الرفيع!

ارجع إلينا من عهد أرض الكآبة القاتمة.

حرر قدميك من اللا مكان واللا زمان.

وأقطن معنا في هذه الطمأنينة الآمنة،

التي ابتنتها يداك وأيدينا حجراً فوق حجر.

انزع عنك ثوب خفقان قلبك،

وكن رفيقاً لنا في السيادة على هذه الأرض الفتية، الحارة بجلال خضرتها.

الإله الأول:

أيها المذبح الخالد!

هل تريد بالحقيقة إلهاً لضحيتك في هذه الليلة؟

إذن فأنا قادم، وبقدومي اقرّب محبّتي وألمي.

هنالك تقف الراقصة، التي نُحتت من شوقنا القديم.

والمرّنم يصيح بأناشيدي في أمواج الريح.

وفي ذلك الرقص، وفي ذلك الإنشاد،

يموت إله قدير في أعماقي.

إن إله قلبي القاطن وراء ضلوع بشريتي ينادي إله قلبي المقيم في الهواء.

والهاوية البشرية التي طالما عطلت عليّ راحتي تصرخ إلى الألوهية.

والجمال الذي نشدناه منذ البدء يصرخ إلى الألوهية.

وفي إصغائي قد قست هذا الصراخ.

وها أنا ألقي سلاحي.

فالجمال طريق يؤدي إلى الذات المقتولة بيد ذاتها.

فاضرب أوتارك.

إنني مستعد للسير على الطريق

فهي تمتد إلى فجر آخر.

الإله الثالث:

قد انتصرت المحبة !

سواء أكانت المحبة بياضاً ناصعاً أو خضرة زاهية بجانب بحيرة، أو كانت جلالاً وفخاراً في القباب الرفيعة، أو كانت في بستان حافل بالناس. أو في صحراء لم تطأها قدم الإنسان،

فالمحبة هي ربنا ومعلّمنا في كل حال.

فهي ليست بالشهوة الزائدة في الجسد.

ولا هي فتات الرغبة المتساقط من مصارعة الرغبة للذات.

كلا، ولا هي بالجسد الحامل سلاحه على الروح،

لأن المحبة لا تعرف الثورة،

ولكنها تهجر طريق الأقدار القديمة لتسير إلى الغابة المقدسة،

لترقص وتترنم بأناشيد أسرارها في آذان الأبدية.

المحبة شباب قد تحطمت قيوده،

ورجولة قد تحررت من عناء الأرض،

وأنوثة حارة بلهيب مقدس، مشرقة بنور سماء أبهى من سمائنا.

المحبة ضحك بعيد في أعماق الروح.

المحبة حملة قديرة تسير بك إلى يقظتك.

المحبة فجر جديد على الأرض،

ويوم لم تصل إليه لا عينك ولا عيني،

ولكن المحبة قد وصلت إلى قدس أقداسه بقلبها الأعظم.

يا أخويّ، يا أخويّ،

إن العروس قادمة من قلب الفجر،

لتلاقي عروسها القادم من الغروب.

وسيكون عرسٌ في الوادي،

ويومٌ أعظم من أن تدوّن حوادثه.

الإله الثاني:

هكذا كان منذ أطلق الصباحُ الأولُ السهول إلى التلال والأدوية،

وهكذا سيكون إلى بعد المساء الأخير.

إن جذورنا قد أنبتت الأغصان الراقصة في الوادي،

ونحن أزهار عبير الأنشودة المرتفعة إلى الأعالي.

فالخالد والمائت نهران توأمان يناديان البحر بغير انقطاع.

وليس بين النداء والنداء فراغ قط، إلا في الأذن.

فالزمان يزيد إصغاءنا ثقة،

ويضيف إلى رغباته.

ولا يخرس الصوت في المائت غير المرتاب.

أما نحن فقد تسامينا على الشكوك.

فالإنسان هو ابن قلبنا الأصغر.

الإنسان إله يرتفع إلى ألوهيته ببطء شديد،

وبين مسرته وألمه ننام ونحلم أحلامنا.

الإله الأول:

دع المرنّم يترنم، والراقصة تحّرك قدميها.

ودعني أطمئن هنيهة.

إن نفسي تريد أن تستريح الليلة،

فقد يغلبني النوم،

وفي نومي أرى عالماً أكثر نوراً من هذا العالم،

فتأتي مخلوقات أبهى من مخلوقاتنا فتسترق طريقها إلى فكري.

الإله الثالث:

إنني أنهض الآن فاجّرد نفسي من حدود الزمان والمكان،

وأرقص في ذلك الحقل الذي لم تطأه قدما إنسان،

وستتحرك قدما الراقصة مع قدمي،

وسأترنّم في ذلك الملأ الأعلى،

وسيختلج صوت بشري مع صوتي.

سنعبر إلى الشفق البعيد،

فقد نستيقظ في فجر عالم آخر.

ولكن المحبة باقية،

ولن تمحى آثار أصابعها.

إن الكور المقدس متأجج بالنار،

وكل شعلة تصعد منه هي شمس محترقة.

فالأجدر بنا، والأحكم لمصلحتنا،

أن نفتش عن زاوية صغيرة فننام في أولوهيتنا الأرضية، تاركين أمر قيادتنا إلى اليوم المقبل، إلى المحبة البشرية الضعيفة.

فهرس